التعليم الشعبي في نابلس

بدأ العمل الميداني بالتعليم الشعبي في 6/9/2002، أي بعد حوالي أسبوع من الإعلان عن فتح المدارس في فلسطين. سبق ذلك نشاط ثقافي في إحدى العمارات القريبة من جامعة النجاح الوطنية والمعروفة بعمارة النجاح حيث بدأ أساتذة جامعيون بإلقاء محاضرات عامة مفتوحة أمام مختلف الأعمار. الأساتذة هم الدكتور عبد الستار قاسم، الدكتور نايف أبو خلف، الدكتور محمود أبو الرب والدكتور فواز عقل. تركزت المحاضرات على القضية الفلسطينية وتطورها، وامتدت لتشمل مواضيع اقتصادية وتربوية. والجدير بالذكر أم المحاضرات كانت تعطى في مدخل العمارة لأنه واسه ويشبه المدرج.

امتدت فكرة التثقيف إلى مسألة التدريس مع بداية العام الدراسي. تين أن الاحتلال الصهيوني لا ينوي رفع منع التجول المضروب على المدينة فأسرع الأساتذة بريادة الدكتور عبد الستار قاسم إلى تشكيل لجنة في الحي للتحضير لإقامة مدرسة شعبية تقوم على تدريس المهاج الدراسي الرسمي ما أمكن. تولت المسألة لجنة نسوية مكونة من أسماء عودة وإخلاص الرطروط وسهير القاضي. بالتعاون مع الأهالي قامت اللجنة بإحصاء عدد الطلاب والطالبات في الحي وفي البحث عن أماكن للتدريس. خلال يومين، كانت الخطة جاهزة والأماكن متوفرة. ولم يبخل أي من ذوي الخبرات التدريسية رجالا ونساء بتقديم ما طلبته اللجنة.

بدأ التدريس صبيحة يوم السبت الموافق 6/9/2002 تحت منع التجول. لقد كان مشهدا جميلا أن نرى الأطفال والشباب يحمل كل منهم كرسيه وما تيسر من الكتب ويتوجه إلى غرفة الدرس التي قد تكون غرفة في بيت أو مخزن أو مرآب أو درج عمارة. لم يكن هناك أي تكاسل كما يحصل عادة في اليوم الأول للدراسة وبدأ التدريس بجد. ذلك لأننا أردنا أن نعطي رسالة واضحة للجميع من الدارسين وغير الدارسين أن الأمر جدي وليس مجرد نشاط إعلامي. لم نكن نفكر في الإعلام حقيقة إلا من زاوية بث الفكرة لكي يتم تعميمها على مختلف أنحاء المدينة ونقلها إلى المدن الأخرى مثل طولكرم وجنين.

تم فتح أربعة عشر صف دراسي من الأول الابتدائي حتى التوجيهي بفرعيه الأدبي والعلمي. والمشكلة الأساسية التي واجهتنا هي توفير العدد المطلوب من المدرسين من داخل الحي نفسه. ولهذا طلبنا من كل من لديه خبرة سابقة أو متقاعد أو ممارس حاليا أن يتطوع. تطوع الكثيرون لكم بقي النقص بالأخص في مادة اللغة العربية ذلك لأن ساعات التدريس الأسبوعية لهذه المادة كثيرة وبحاجة إلى عدد كبير من المدرسين. طلبنا العون من الأحياء المجاورة وجرى تبادل الخبرات.

بدأ اليوم الأول بحوالي مائتي طالب وطالبة في مختلف سنوات الدراسة من الأول ابتدائي إلى التوجيهي. ارتفع العدد في اليوم الثاني إلى حوالي مائتين وخمسين بسبب انضمام أعداد من الأحياء المجاورة. في اليوم الثالث، لم نعد قادرين على استيعاب الأعداد مما اضطرنا إلى تحفيز الأحياء الأخرى لعمل مدارس شبيهة. لم تتأخر الأحياء وقامت بفتح مدارس، وخلال أسبوع كان التدريس يعم المدينة.

ماذا عن دائرة التربية والتعليم؟ إنها لم تتعاون ورفضت فتح المباني المدرسية أمام المدرسة الشعبية. الحجة أنها لا تريد أن تتحمل مسؤولية ما يمكن أن يقوم به الاحتلال من إجراءات.

التدريس الشعبي لا يغني عن المدارس الرسمية التي تتميز بأجواء خاصة وبتوفر المدرسين الخبراء في مجالهم، وهو لا يهدف إلى أن يحل محل التدريس الرسمي. لكنه يهدف إلى:

1- وضع الطالب في حالة دراسة مع بداية العام الدراسي.
2- التغلب على الحالة النفسية التي يصنعها منع التجول والمتميزة بالضيق والتساؤل عن مستقبل الدراسة. صحيح أن الطالب في الأيام العادية يفرح للعطل والإجازات إلا أن مشاعره تتبدل إذا شعر أن مستقبله الدراسي في خطر.
3- السير في المنهاج الأكاديمي بأفضل ما يمكن مما سيسهل على المدرسين والمدرسات مستقبلا السير بسلاسة في المنهاج.
4- تقوية الشعور بالمسؤولية لدى الأهالي والطلاب تجاه الجيل.

5- توثيق عرى التعاون ما بين الناس وتوجيه الجهود نحو ما هو مثمر. وبدل أن نندب حظنا بسبب منع التجول من المهم أن نصنع أشياء مثمرة تحد أو تخفف من آثار المنـــع. وقــد ظهرت الحميّة على وجوه الناس والبهجة. عدد كبير منهم استعدوا للتعاون وقدموا.

لكن للتدريس الشعبي ميزات كبيرة لا تتوفر لدى التدريس الرسمي:

1- عدد الطلاب في الصف قليل مما يمكن المدرس أو المدرسة من الانتباه إلى كــل طالــب وطالبة شخصيا. مستوى التعليم في الفصل المكون من عشر طلاب يختلف عن ذلك فــي الفصل المكون من خمسين.
2- يشعر الطلاب بمسؤولية كبيرة لأنهم يدركون أن المدرس متطوع وأن الأهالي يتطوعون ويتعبون من أجل انتظام نشاط من المفروض أنه مقدس. هنا تختفي تلــك الألاعيــب أن أعمال الاستهتار التي قد يمارسها الطلبة في المدرسة.
3- تتحرر المدرسة الشعبية من أجواء التوتر التي تفرضها قوانين التربية على المدرس ممــا يجعله عرضة للإهانة. يتكاتف الأهالي لردع أي طالب يحاول الإساءة للأستاذ، والطالــب الذي يرى أن التطاول من حقه له أن يختار عدم العودة إلى المدرسة إلا بتعهد وضــمان قوي من ولي أمره.

التدريس مختلط وهذا ما أدى إلى امتناع بعض الأهالي وهم قلة عن إرسال بناتهم على الرغم من أنهم أرسلوا أبناءهم الذكور.